تعريف ونقد

للدكتور كمال محمد بشر

فى أواخر القرن الماضى وأوائل هذا القرن الذى نعيش فيه ، حظى الدرس اللغوى بالقارة الأوربية بعبقرية نادرة المثال . ونعنى بتلك العبقرية ذلك اللغوى السويسرى الشهير فرديناند دى سوسير Ferdinand de Saussure

ويحتل دى سوسير فى نظر الدارسين مكانة خاصة ، قل أن يشاركه أويدانيه فيها غيره من اللغويين المحدثين . إنه فى نظرهم أحد الرواد القلائل الذين وضعوا حجر الأساس لعلم اللغة الحديث . وهو بالإضافة إلى ذلك يمثل مدرسة فكرية جديدة من نوع لم يألفه الناس من قبل : مدرسة استطاعت أن ترسم حدودا واضحة المناهج من البحث كانت بمثابة اللبنات الأولى لكل الاتجاهات الحديدة فى الحقل اللغوى المعاصر .

لسنا ننكر أن القارة الأوربية قد شهدت فى تاريخها الطويل شخصيات لغوية أخرى فذة ، أمثال همبولت Humboldt ، نورين Noreen ، ماشيس Mathesius تروبتسكوى Trubetzkoy ، ميه Meillet وهيلمسلف Hjelmslev . ولكن دى سوسير يفوق هؤلاء جميعاً بميزتين مهمتين :

١ — تعد أفكار دى سوسر وآراؤه بداية علم اللغة الحديث بوصفه موضوعا أكاديميا مستقلا ، كما يبدو فى صوته الحاضرة .

٢ — كثير من الموضوعات والتعريفات العلمية المعترف بها فى العالم الآن ، والتى تعد أساسيات فى الدراسات اللغوية الحديثة ، قد اتضحت لأول مرة على يديه وبفضل جهوده الخاصة (١) .

ومما يؤكد أهمية آراء هذا العالم ويشير إلى خطورة أفكاره ، أن أصبح اللغويون المحترفون يصنفون ويقسمون إلى مجموعات ، منسوبين إليه جميعاً . فهم على رأى أستاذنا فيرث — اما :

١ — Saussureans = السوسيريون .

٢ — anti — Saussureans

(1) See, Robins: General Linguistics: An Introductory Survey, P. 32.

= معارضو السوسيريّين .

٣ — Post — Saussureans

= السوسيريون المتأخرون .

أو ٤— non — Saussureans[1]

= اللاسوسيريون .

وما ذلك فى رأينا إلا لأن دى سوسير قد أثر فى الدارسين تاثيرا لا يعدله بحال تأثير أى لغوى فرد على الإطلاق ؛ فقد نجح الرجل فى إثارتهم جميعاً وشد انتباههم إليه ، بما ألقى فى الحقل اللغوى من أفكار جريئة ومبادىء غير مألوفة لهم من قبل . وقد حمل هذا بعض الدارسين إلى اتباعه والتحمس لتعاليمه كما دفع آخرين إلى إلى معارضته والتصدى لنظرياته .

ولا ترجع شهرة دى سوسير ومكانته العلمية إلى كثرة نتاجه أو كثرة المنشور منه. فكل مانشر فى حياته لا يتجاوز ستمائة صفحة ، وهى تشمل رسالته للدكتوراه التى اتبع فى كتابتهـا الخطوط التقليـدية لمناهج البحث ، كما تشمل بحثا قيما عن « نظام الحركات » Vowel systim فى اللغة الهندية الأوربية الأم : Proto—Indo—European وقد قام بهذا العمل الأخير وهو فى سن العشرين (أو الثانية والعشرين ، على مايرى بعضهم)[2] حين كان طالبا بجامعة ليبزج . ويقول الدارسون : إن هذا البحث — بالرغم من اعتماده على حقائق كانت معروفة آنذاك — يعد أشمل دراسة وأعمقها فيما يختص بهذا الموضوع (٣) . وتنتظم هذه الصفحات المذكورة كذلك دراسات أخرى من أنواع متفرقة .

أما شهرة دى سوسير الحقيقية فتنسب فى الأساس إلى محاضراته القيمة التى ألقاها على طلابه فى معهدين كبيرين من معاهد العلم فى أوربا . أولهما : معهـد الدراسات العليـا بباريس École de Hautes Études حين كان فى الوقت نفسه يشغل منصب الأمانة العامة للجمعية اللغوية هناك . وثانيهما : جامعة جينف . حين تربع على كرسى الأستاذية سنة ١٩٠٦ خلفا للعالم الكبير Joseph Wertheimer

وقد كانت هذه الفترة الثانية — فترة أستاذيته بجنيف — أخصب سنى حياته وأكثرها تأثيرا فى عقول الدارسين . وهذه الفترة نفسها — بالرغم من قصرها — هى التى شاهدت أفكار هذا العبقرى تجاوز

(1) Firth : Papers in linguistics, P.179.

(٢) انظر مقدمة الترجمة الإنجليزية لكتاب دى سوسير :

Course in General Linguistics, P. XI, translated by W. Baskin (Peter Owen, London 1960).

وانظر أيضا :

New Trends in Linguistics, by B. Malmberg, P. 36.

(٣) مقدمة الترجمة الإنجليزية للكتاب السابق ص xi

الحدود التقليدية للبحث اللغوى ، وتخط للباحثين خطوطا جديدة تتسم بالأصالة والابتكار .

ولقد ألقى الأستاذ محاضرات هذه الفتره الثنية على ثلاث دورات ، بدأت عام ١٩٠٦ ، وانتهت عام ١٩١١ . وكان المفروض أن تخصص هذه المحاضرات كلها لعلم اللغة العام ، ولكن دى سوسير اضطر — بحكم طبيعة عمله فى الفترة الأولى - إلى أن يعرج من آن إلى آخر على تاريخ اللغات الهندية الأوربية ووصف مشكلاتها . ولقد كان من نتائج هذا السلوك — كما يقرر ناشرو هذه المحاضرات — أن الجزء الأساسى من موضوعه (وهو علم اللغة العام) لم يحظ بالعناية التى يستحقها (١) .

وقد أدى هذا إلى حرمان الدارسين من مادة قيمة كان بوسع دى سوسير أن يقدمها إليهم فى سهولة ويسر .

وفى سنة ١٩١٣ وضع القدر نهاية لهذا الفكر الخصب بوفاة دى سوسير ، تاركا طلاب اللغة جميعاً بدون مرجع يلجئون إليه لتوضيح آرائه ونظراته ، وهى آراء لا يغنى فيها أى مرجع آخر ، ونظرات يعوزها البسط والتفصيل أحياناً ، هذا بالإضافة إلى أنها — فى جملتها — من ابتكار الرجل ومن صنع ذاته وحده .

وقد كان ذلك حافزاً للنابهين من طلابه إلى جمع « مذكراتهم » الخاصة بعد مراجعتها ومقارنتها بما عسى أن يكون الأستاذ قد تركه من مخطوط لدى أسرته ، وضم ذلك كله بعضه إلى بعض وإخراجه فى صورة كتاب كامل يحمل ذلك العنوان المشهور فى الدرس اللغوى الحديث :

Cours de linguistique générale

وخرج الكتاب إلى الناس لأول مرة سنة ١٩١٦ (٢) بعد جهود شاقة قام بها تلميذاه الوفيان Charles Bally و Albert Sechehaye . وقد ساعدهما فى بعض المراحل تلميذ ثالث هو A. Reidinger وقد اضطروا جميعاً إلى اتخاذ خطوات معينة تضمن صحة المادة وسلامتها والظفر بأفكار أستاذهم كاملة دون تزييف .

ولم يكن هذا العمل بطبيعة الحال أمراً هيناً ، فمذكرات الطلاب مهما بلغت من الدقة يعوزها الوضوح والكمال أحيانا ، بما قد يلحقها من اضطراب العبارة أو تكرارها ، أو تداخل الأفكار بعضها ببعض. ويزيد فى هذا الاضطراب والخلط أن دى سوسير كان يلقى بأفكاره على طلابه ارتجالا ، كما كان كثير الحركة أثناء الإلقاء وقد جعل هذا السلوك مهمة التسجيل لما يقول

---

(١) مقدمة الناشرين للكتاب المذكور ص xiii .

(٢) ترجم الكتاب إلى الألمانية سنة ١٩٣١ ، وإلى الأسبانية سنة ١٩٤٥ ، كما ظهرت له ترجمة انجليزية سنة ١٩٦٠ انظر ص ٢٢٩ ، ملحوظة (٢) ونحن فى سبيل الانتهاء من ترجمته إلى العربية .

أمراً فيه قدر كبير من الصعوبة . ويروى كذلك أن الأستاذ كان يطلق العنان لأفكاره أحياناً وينتقل من نقطة إلى أخرى بدون تنبيـــه لطلابه أو تحذير لهم ، حتى ليكاد يخرج عن الموضوع أو يناقض نفسه من آن إلى آخر .

وقد وضع طلابه القـــائمون بهذه المهمة هذه الأمور كلها نصب أعينهم . ومن ثم راحوا يجمعون ما يمكن جمعه من مذكرات الدورات الثلاث ومقارنتها بعضها ببعض ، معتمدين على محاضرات الدورة الثالثة كنقطة بداية للعمل . وفى نهاية المطاف خرجوا بالكتاب فى صورة متكاملة .

ولكن بالرغم من هذا الجهد الكبير فقد بدت بالكتاب بعض أوجه القصور التى يستطيع أن يدركها من له دراسة بالبحث اللغوى .

من أهم هـــذه الوجوه فى نظرنا ما يتسم به الكتاب من تعقيد واضطراب فى العبارة أحياناً ، حتى ليعجز المرء فى أكثر من مناسبة عن إدراك المقصود . وذلك بالطبع أمر يمكن تفسيره ، إذ من الصعب أن ترقى عبارة الطالب إلى عبارة الأستاذ فى الدقة والوضوح ، وبخاصة فى مثل تلك الظروف التى أحاطت بالقاء دى سوسير لمحاضراته . وقد أحس الناشرون بهذا الأمر ، فكانوا يعمدون إلى توضيح ما استبهم بإشارات تفسيرية فى هامش الكتاب .

وقد يوجه النقد مباشرة إلى الناشرين فى بعض النقاط . من ذلك مثلا أنهم حاولوا نسبة بعض الحقائق العلمية إلى أستاذهم ، بالرغم من أنها كانت معروفة من قبله ، ونوقشت بالفعل فى بحوث سابقة لمحاضراته ، كما يبـــدو ذلك الأمر جليا فى بعض القضـــايا التى أثيرت حول موضـــوع التطـــور الصـــوتى Phonetic change . ولكن الناشرين — مدركين احتمال توجيه هذا النقد — يجيبون — وهم على حق — بأن ما نسبوه لأستاذهم فى هذا المجال ليس تزييفاً للأمور ، وانما هو فى الحقيقة من صنعه ، وإن كان ذلك من زاوية معينة . تتمثل تلك الزاوية فى قدرة دى سوسير على ربط هذه القضايا بموضوع آخر لا شك إطلاقا فى أنه صاحبه وصانعه بالدرجة الأولى ، وهو منهجه الخاص بعلم اللغة الذى نعته « بالسنكرونى » synchronic فى مقابل علم اللغة « الدياكرونى »[1] diachronic (انظر ص ٢٣٤) .

على أن بالكتاب نقاط ضعف أخرى ، تظهر فى المادة العلمية ذاتها ولكنها هذه المرة ترجع إلى دى سوسير نفسه . من هذه النقاط ما نلحظه هنا وهناك من إيجاز مخل ، حيث يكتفى الأستاذ أحياناً بلمس

---

(١) انظر مقدمة الترجمة الإنجليزية للكتاب ، ص .Xiii وما بعدها .

بعض المسائل المهمة لمسا خفيفاً ، فيترك القارىء نهبا للغموض وسوء الفهم . وقد حدث ذلك بالفعل عندما عرض للسيمانتيك أو علم الدلالة أو « السيمية » باصطلاح مجمع اللغة العربية بالقاهرة . فقد أشار إلى هذا الموضوع إشارات عابرة لاتشفى غلة ، ولا تمكن الدارس من التعرف على رأى دى سوسير فيه تعرفاً دقيقاً . هذا ما فعله دى سوسير ، بالرغم من أنه قد ناقش فى ثنايا كتابه بعض الجوانب المهمة للسيمية ، كالرمز اللغوى مثلا أو ما سماه le signe linguistique ، وبالرغم من أن فكرته عن هذا « الرمز » كانت بمثابه الانطلاقة الحقيقية لعلم « السيمانتيك » الحديث ، كما كانت أساساً مهما لتفريع قضاياه وإثارة مشكلاته ، على نحو ما يجرى فى الدراسات المعاصرة الخاصة بهذا العلم .

ربما يعتذر عن دى سوسير هنا بأنه فى حقيقة الأمر لم يكن يهدف فى هذه المحاضرات إلى معالجة كل نقاط الدرس اللغوى ، وإنما كانت لديه أفكار معينة ، يرمى إلى إبرازها وتأكيد أهميتها حتى يتبناها طلابه والدارسون من بعده .

وقد يؤخذ عليه كذلك أنه أهمل أحد طرفى « ثنائيته » المشهورة والمعروفة باللغة langue والكلام parole (١) ، ولم يعطه نصيبا من النظر والدرس . لقد ركز دى سوسير جل اهتمامه أو كله على « اللغة » ووجه كل عنايته إلى « العلم » الذى يكرس جهوده لبحثها وهو « علم اللغة » بالمعنى الصحيح ، على حين لم يأخذ « الكلام » فى حسبانه إلا على ضرب من التسامح وفى حدود ضيقة إلى أبعد حد . ولم يشأ دى سوسير كذلك أن يضع منهجا أو أن يخط مبادىء علم معين لدراسة « الكلام » فى الوقت الذى يعترف فيه بأنه يستحق الدراسة ، وبالرغم من أنه صاحب ثنائية « اللغة ــ الكلام » التى كان ينبغى أن تقابلها ثنائية فى المنهج أو طرائق البحث .

ولا يعدم قارىء الكتاب كذلك أن يجد أفكاراً يناقض بعضها البعض الآخر ، كما يظهر ذلك مثلا فى استعمال بعض المصطلحات . « فالرمز اللغوى » le signe linguistique بوصفه مصطلحاً ، قد خرج باستعماله عن المفهوم التقليدى وهو « الدال » signifiant وأطلقه على معنى جديد ينتظم مجموع شيئين متلازمين ، هما « الفكرة » concept (أو ما يشار إليه عادة بالمدلول Signifié) والصورة الذهنية للأصوات sound — image (أو ما يعرف عند الآخرين بالدال signibiant). وهذا يعنى أن « الرمز اللغوى » عنده وحدة متكاملة ذات جانبين لا يمكن فصلهما أو عزلهما بعضهما عن بعض ، شأنهما فى ذلك شأن صفحتى الورقة (٢) .

---

(١) انظر ص ٢٣٥ وما بعدها .

(٢) انظر : مالمبرج ، السابق ص ٤١ – ٤٤

وليس ينكر أحد على دى سوسير أو غيره حقه فى استعمال المصطلحات فى مفهومات جديدة ، متى قام بتحديدها ، وبيان المقصود منها ، ولكن الذى نأخذه عليه هو أنه قد خالف هذا الاستعمال بنفسه أحياناً ، حيث كان يطلقه على المعنى التقليـــدى ، وهو « الدال » فقط ، الأمر الذى أدى إلى الخلط وســـوء الفهم لبعض مسائل الكتاب .

ومهما يكن من أمر فكتاب دى سوسير يعد واحداً من تلك الآثار العلمية التى وضعت على الطريق معالم بارزة فى مناهج البحث اللغوى الحديث والتى كونت — بجدتها وعمقها — علما مستقلا له كيانه الخاص.

ولسنا نبالغ إذا قررنا أن محاضرات دى سوسير هذه كانت أكبر أثراً من غيرها فى هذا المجال ، لاحتوائها على أفكار ومبادىء تعرف لأول مرة فى تاريخ الدراسات اللغوية ، أو على الأقل تولت شرح أو تقنين أمثلة جزئية من الأفكار ، كانت تطلق قبله هنا وهناك دون القدرة على الربط بينها وإخراجها فى صورة نظريات أو مناهج متكاملة .

ولعل أبرز سمة يتصف بها كتاب دى سوسر هى اهتمامه بالمبادىء العامة دون الدخول فى الدقائق والتفصيلات ، أو التعرض للأمثلة الجزئية إلا فى النادر اليسير. وفى هذه الحالة الأخيرة ، تظهر عبقرية الرجل فى محاولة التعرف على الخيوط الرفيعة التى تربط هذه الدقائق بعضها ببعض والتى تقود إلى استخلاص قاعدة عامة على نحو ما من هذه الأمثلة المتفرقة .

والكتاب فوق هذا وذاك يمثل خلاصة آراء هذا اللغوى الكبير واتجاهاته نحو عدد من المسائل الخطيرة التى تكون فى جملتها نظرية متكاملة ، جديرة أن تنسب إليه وحده. والحق أن مناقشة أية مسألة من هذه المسائل — على نحو ما جرى فى محاضرات دى سوسير — تقود فى نهاية المطاف إلى نظرية خاصة بهذه المسألة أو تلك . ولكنا بالرغم من ذلك نعد هذه النظريات « الجزئية » أو « النوعية » حلقات متصلة من التفكير تأخذ بيدنا فى النهاية إلى كل متلائم الأطراف متناسق الوحدات ، تتمثل فيما يمكن أن يسمى « نظرية دى سوسير فى البحث اللغوى » .

وقد كانت أفكار دى سوسير ومبادئه اللغوية تدور فى عمومها حول هدفين رئيسين : اولهما : تصحيح بعض الآراء الزائفة التى كانت تشيع فى أوساط التقليديين من اللغويين . وثانيهما : محاولة تخليص البحث اللغوى من تبعيته للعلوم الأخرى وتخصيص علم مستقل ذى حدود معينة يقوم على النظر فى اللغة والكشف عن حقيقتها .

كما كان دى سوسير كذلك يصدر فى كل ما أتى به عن فكرة معينة ألحت عليه إلحاحاً شديداً فى كل أعماله . تتمثل

هذه الفكرة فى أن اللغة ظاهرة اجتماعية ، وليست كائناً حيا (إلا على ضرب من المجاز) أو هى حقيقة اجتماعية social fact يمكن أو ينبغى أن تخضع لما تخضع له الظواهر الاجتماعية الأخرى من التحليل العلمى . واللغة بهذا المعنى ، ينبغى أن نأخذها — حين نتناولها بالدرس — على أنها « نظام تركيبي » تتحدد قيمة كل عنصر فيه بالإشارة إلى وظيفته ، أى إلى علاقته بالعناصر الأخرى فى هـــذا النظام ، لا بالإشارة إلى خواصه اللغوية ، فيزيائية كانت أو سيكلوجية .

والمبادىء اللغوية التى ألقى بها دى سوسير إلى العاملين فى الحقل اللغوى كثيرة متنوعة. ولكنا هنا سوف نقصر الحديث على مبدأين أو فكرتين اثنتين . ذلك ، لأن دى سوسير هو الرائد الأول فيهما ، أو — على أقل تقدير — هو صاحب الفضل فى إبرازهما بتلك الصورة التى أدت إلى إحداث ثورة فى التفكير اللغوى ، وإلى دفع هذا التفكير إلى آفاق علمية لم يحلم بها سابقوه . أضف إلى هذا أن هاتين الفكرتين تكونان — فى حقيقة الأمر — الإطار العام لوجهة نظر هذا اللغوى الكبير فى دراسة اللغة ، كما أنهما تنتظمان — بطريق مباشر أو غير مباشر — أهم الأفكار الجزئية المتناثرة هنا وهناك فى محاضراته .

هاتان الفكرتان هما : أولا : التفريق التام بين طريقين لدراسة اللغـــة سماهما « التحليل السنكرونى » و « الدراسة الدياكرونية » . ثانياً : التفريق التام بين ما أطلق عليهما la langue و la parole .

وقد كانت هاتان الفكرتان كلتاهما تمثلان اتجاهين مختلفين تماماً عما تعارف عليه التقليديون من اللغويين .

الفكرة الأولى :

جاء دى سوسير فوجد اللغويين من قبله يقصرون دراستهم للغة على النهج التاريخى الصرف ، أو النهج التاريخى المشوب بشىء من الوصف المبنى على أفكار فلسفية أو معيارية . وقد كانت هذه الدراسة ذاتها ناقصة من بعض وجوهها ؛ إذ كانت تعنى — فى الأغلب الأعم — بتتبع الظواهر اللغوية من فترة زمنية إلى أخرى ، لا بوصفها عناصر فى نظم لغوية تتبين قيمها بمواقعها فى هذه النظم ، وإنما بالنظر إليها كما لو كانت ظواهر منعزلة ، أو — بالأحرى — كما لو كانت أمثلة جزئية لا تخضع لقواعد مطردة .

ثار دى سوسير على هذا الخط التقليدى ، ورأى أن هناك طريقين مختلفين لدراسة اللغة. أما أحدهما فسماه المنهج « الدياكرونى » diachronic أو التاريخى historical أو ما يدعى أحياناً بالنظرة « الديناميكية » dynamic والثانى هو طريق التحليل « السكرونى » synchronic أو ما عرف فيما بعد

بالوصفى descriptive وقد ينعت أحياناً « بالثابت » static .

ثم أخذ دى سوسير يفرق تفريقاً تاما بين هذين الطريقين ، فالمنهج الدياكرونى أساسه تعدد الفترة الزمنية ، حيث يلاحظ الدارس الظواهر اللغوية من فترة زمنية إلى أخرى ، قصدا إلى التعرف على ما أصابها من تغير وتطور . ولكن « المنهج السنكرونى » خاصته الأساسية وحدة الفترة الزمنية ، مع قصر وظيفة اللغويين فى هذه الحالة على النظر فى وحدات التركيب اللغوى للوقوف على نوع العلاقات الداخلية بينها فى هذا التركيب. إن الدارس — على هذا المنهج — لا يدخل عامل الزمن فى حسبانه ألبته ، وإنما يعنيه أولا وآخرا أن يأخذ اللغة على أنها « نظام تركيبى » ثابت فى نقطة محددة من الزمن لا يتعداها .

فالمنهجان فى نظره صالحان للدراسة ، وضروريان للبحث اللغوى ، ولكن مع التمييز بينهما والتفريق بين وظائفهما . ومن ثم لا يجوز الخلط بينهما أو العمل بهما معاً فى آن . وحذر دى سوسير من اعتماد الدراسة السنكرونية على النظرة التاريخية، لما يعقب ذلك من الخلط فى النتائج اللغوية ؛ ولكن الطريقة الدياكرونية لها أن تلجأ إلى المنهج السنكرونى ، بل إن ذلك أمر ضرورى حيث إن تعدد الفترة الزمنية يعنى — بداهة — انتظام العمل لأكثر من دراسة سنكرونية سابقة ، كل واحدة منها تختص بفترة زمنية واحدة .

الفكرة الثانية :

أنهى دى سوسير مناقشته الطويلة فى الموضوع السابق بأن المنهج السنكرونى هو المنهج الواجب اتباعه فى تحليل اللغة ، بالمعنى الجديد الذى أراده لها .

ومن ثم كان عليه أن يحدد أو أن يبين ما يعنيه « باللغة » التى يرى وجوب اخضاعها لهذا المنهج . بدأ دى سوسير هذا التحديد وذاك البيان بالتفريق بين ثلاثة مصطلحات وثلاثة مدلولات ليصل إلى مقصوده . هذه المصطلحات هى :

(١) lalangue, la parole, le langage

---

(١) المصطلحات الثلاثة التى استعملها دى سوسير فى هذا المقام (وهى Parole, langue, langage) مصطلحات فرنسية ، وهى ذات دلالات خاصة عنده ، كما سيتبين لنا فى هذا البحث . ومن ثم حرص كثير من الدارسين على الاحتفاظ بها دون الالتجاء إلى ترجمتها حتى لا يختلط الأمر ويسوء الفهم . ونحن من جانبنا نقرر أن أيا من هذه المصطلحات لا يمكن ترجمته إلى العربية ترجمة دقيقة بكلمة واحدة ، على ما هو المفروض أن يتبع فى مجال المصطلحات العلمية . أما الترجمة المناسبة لهذه المصطلحات — فى رأينا — فهى (على الترتيب المذكور بالنسبة للمصطلحات الفرنسية السابقة) : اللغة بالمعنى العام أو المطلق ، اللغة بمعنى النظام التركيبى ذى الحدود والقواعد المعينة (وهذا المعنى لا ينطبق إلا على اللغة المعينة ، كالعربية فقط أو الإنجليزية فقط إلخ . . .) . ثم الكلام الفعلى . وقد نكتفى فى هذه الحالة الأخيرة بلفظة « الكلام » وحدها ، قاصدين بها ذلك النشاط اللغوى المنطوق من المتكلم الفرد فى الموقف =

le langage مصطلح فرنسى يستعمـــله دى سوســـير ليريد به ما يمكن أن يسمى « اللغة بالمعنى المطلق » . أنها - عنده - أشبه بالملكة أو الطاقة اللغوية . وهى دائما تتضمن جانبين متقابلتين ، فهى تتضمن نظاما ثابتـا مقررا established system كما تتضمن التطور والديناميكية evolution . أو قل : إنها تنتظم مجموع الأحداث النطقية الواقعية فى الكلام الفعلى ، كما تنتظم القواعد اللغوية المقررة فى البيئة الاجتماعية المعينة .

إنها – بهذا المعنى – شئ غير متجانس hetrogenous غير واضح الحدود ، وهى ملك الفرد والمجتمع كليهما ؛ فهى فردية واجتماعية معا (individual and social) .

واللغة بالمعنى المطلق عند دى سو سير لها اتصال بمجالات من أنواع شتى ، مجالات فيزيائية مادية physical وفسيولوجية نفسية physiological and psychological

ولكن هذه اللغة (langage) ينقصها مبدأ التجانس والوحدة ومن ثم لم يكن فى استطاعتنا دراستها دراسة علمية . والحق أنه ليس هناك علم وحيد يمكن أن يخضعها للنظر والبحث ، كما أنه ليس فى مقدورنا أن نحدد لها مكانا فى أجناس الحقائق الانسانية ؛ إذ من الصعب التعرف عليها أو اكتشاف وحدتها ، إنها – كما يقول هو – inconnaissable .

هذان الجانبان المتقابلان اللذان تتضمنهما « اللغة بالمعنى العام » أو langage يشيران إلى « ثنائية » دى سوسير الشهيرة أو ما سماهما parole و langue .

أما la parole فيطلقه دى سوسير على ما يمكن أن ندعوه « بالكلام » أوعملية الكلام " speaking . ويعنى به النشاط الصوتى المادى ، أوهوعبارة عن تلك الأصوات والأحداث المنطوقة بالفعل من المتكلم الفرد فى الموقف المعين . وهو لذلك فردى فقط individual ونفسى مادى psychophysical . والفرد صاحبه وهو المسيطر عليه : يغير فيه بالزيادة والنقص والتطـــوير . و parole شئ غير ثابت ، إنه مرتبط باللحظة التى يؤدى فيها . إنه ليس حقيقة اجتماعية ، وإنما هو نشاط فردى إجـــابى غير مســـتقر ، وهو وظيفة الفرد وحده la sujet parlant .

= المعين ، على نحو ما قصد دى سوسير نفسه بمصطلحه الثالث parole . وهذا المصطلح ذاته قد جرت عادة الدارسين ممن يكتبون بالانجليزية على ترجمتـــه بالكلمة « speech » . ولكن مترجم كتاب دى سوســـير آثر مصطلحا آخر هو speaking ليعنى به parole وخصص المصطلح "speech" للدلالة على ما سماه دى سوسير langage (اللغة بالمعنى العام) . وما جرى عليه هذا المترجم الفاضل أدق فى نظرنا لأن كلمة speaking أصدق فى الدلالة على ما عناه دى سوسير باللفظة parole ، وأقرب إلى المفهوم الذى رآه لهذا المصطلح الأخير . ولسوف نسير فى هذا البحث وفقا للترجمة العربية التى اخترناها وإن كان هذا لا يمنع الجمع بين هذه الترجمة ونظيرها الفرنسى بلفظه ، أو الاقتصار على المصطلحات الفرنسية وحدها ، إذا اقتضى الأمر ذلك قصدا إلى الدقة فى التوضيح أو إلى الاختصار فى صيغ المصطلحات .

ثم ينتقل دى سوسير إلى الكلام عن la langue ، فيصورها لنا بالطريقة التالية : إذا استبعدنا من هذا العموم المسمى langage وأخذنا منه كل العناصر الفردية التى تتمثل فى الكلام الفعلى ، وكل الأصوا ت المنتشرة فى الهواء ، وكل الأحداث الفعلية الواقعة من أفراد المتكلمين ، أو — بعبارة أخرى — إذا أبعدنا واستخلصنا le langage من la parole فسوف يبقى لدينا أهم شئ فى الموضوع ، أو سوف نحصـــل على هدفنا الأصلى وهو la langue أو « اللغـــة بمعنى النظام الثابت » أو أنماط العادات والقواعد اللغوية التى استقرت فى أذهاننا نتيجة لممارسة النشاط الكلامى الإيجابى فى البيئة .

langue إذن ليس فيها أصوات مادية حقيقية ، وإنما تحتوى على وحدات صوتية ذهنية أو فونيمات phonemes وليس بها كلمات أو جمل منطوقة بالفعل وإنما بها أجناس صرفية نحوية . وهى عرفية تقليدية ، وهى وظيفة جماعة المتكلمين la masse parlante . إنها ملك هذه الجماعة وليس للفرد عليها من سلطان ، وهى لذلك اجتماعية فقط social ونفسية صرفة psycho logical وهى مخزونة فى شبه نظام دقيق فى الوعى أو العقل الجماعى conscience collectiv e

إن langue بهذا الوصف الذى أتى به دى سوسير إنما تنطبق على اللغة المعينة كالعربية فقط أو الانجليزية فقط ، آخذين فى الحسبان خاصتيهما الأساسيتين وهما كون كل منهما « نظاما » ، لا أحداثا منطوقة ، وكون هذه اللغة أو تلك اجتماعية ، تنسب إلى جماعة المتكلمين ، لا إلى الأفراد ، بوصفهم أفراداً .

ويوضح هاتين الخاصتين معا تفسيره « للغة » بهذا المعنى المعين بأنها « حصيلة كل القوانين اللغوية التى تحدد استعمال الأصوات والصيغ ووسائل التعبير النحوية والمعجمية فى البيئة اللغوية المعينة » .

وهى - بهذا أو مع هذا - « نظام تركيبى » مكون من وحدات ذات قيم خلاقيه لا يمكن التعرف عليها أو الكشف عنها إلا بتحديد مواقعها وبيان علاقاتها مع جاراتها فى التركيب. وفى رأيه أن ذلك أنما يتم بطريق التحليل السنكرونى .

والفرق بين اللغة والكلام كالفرق بين القاعدة وتطبيق هذه القاعدة . والناس لا يتكلمون القواعد وإن كانو يتكلمون طبقا لها ويحاولون تحقيقها ماديا ، كما يظهر ذلك فى كلام الفرد فى الموقف المعين . أو - على حد تعبير دى سوسير نفسه[1] - اللغة تشبه السيمفونية على حين يشبه الكلام العزف على الآلات الموسيقية بالفعل لتحقيق هذه السيمفونية

---

(١) الترجمة الانجليزية ص ١٨

ماديا .أو قل : إن اللغة تقع من الكلام موقع القواعد التلغرافية من عملية إرسال الرسالة التلغرافية نفسها .

و langue يمكن أن تدرس وحدها ، أى بقطع النظر عن تحقيقها المادى وهو الكلام parole . فاللغات الميتة كالسنسكريتية واليونانية واللاتينية وغيرها تجرى دراستها الآن - كما جرت من قبل - فى الجامعات ومعاهد العلم المختلفة ، بالرغم من أن الناس لا يتكلمونها ، ولايستعملها أحد فى التخاطب العادى .

أما الكلام فتحتاج دراسته إلى التعرض لأشياء أخرى ، أو على أقل تقدير ، لابد لهذه الدراسة من النظر فى اللغة ، إذ الكلام لا يكون إلا بوجود اللغة . وصاحبه - وهو الفرد - مضطر دائما إلى أن يتعلم هذه اللغة وإلى أن يظل دائما كما لو كان فى فترة تدريب على كيفية أداء هذه اللغة لوظيفتها .

وإلى هنا يصل دى سوسير إلى تفريق تام بين lavgue و parole ولكنه بالرغم من ذلك لا ينكر وجود علاقة بينهما ، كما لاينكر اعتماد كل واحد منهما على الآخر. إن اللغة - عنده - أداة الكلام من جهة وهى نتاجه من جهة أخرى (٢) . فاللغة تمد الكلام بالقواعد والقوانين التى يجرى على سننها تحقيقه المادى الفعلى ، كما أنها - بوصفها مجموعة من النظم الذهنية - تترسب فى أذهان الجماعة اللغوية المعينة وتختزن فى هذه الأذهان بعد الاستماع الطويل المتكرر إلى المتكلمين ، بوصفهم أفرادا - فى البيئة الخاصة .

والكلام هو الآخر ضرورى لبناء اللغة وتكوينها . وهو وسيلتها إلى التطور والنمو ، ويتم التطور عن طريق تأثرنا بكلام الأفراد الكثيرين من حولنا ، الأمر الذى يؤدى إلى تغيير عاداتنا اللغوية أو تعديلها .

واللغة بهذا المعنى الذى قرره دى سوسير يمكن التعرف عليها وعلى حدودها . وهى متجانسة homogenous ولها بذلك مكان بارز بين الحقائق الإنسانية . ومن ثم نستطيع تناولها بالدراسة ، بل إن اللغة - بهذا المفهوم الخاص - هى الموضوع الأساسى لعلم اللغة

وليس يعنى هذا أن الكلام شئ لا يستحق الدراسة . إنه جدير بها . ولكن هذه الدراسة لاتتم - فى رأيه - فى إطار علم اللغة بالمعنى الصحيح . وإذا كان من الضرورى سحب المصطلح « علم اللغة » عليهما معا (langue و parole) .وجب علينا حينئذ أن نتكلم عما يمكن أن نسميه « علم لغة الكلام » linguistics of speaking فى مقابل » علم لغة اللغة « linguistics of language ، على شريطة ألانخلط

---

(٢) السابق ص ١٩

بينهما بحال من الأحوال [1] .ومع هذا كله فقد استقر رأى دى سوسير على إفراد langue وحدها بالدراسة وعلى تخصيص « علم اللغة » لها دون غيرها .

....

وإذا كان لنا أن نقف على مدى التأثير الذى أحدثته أفكار دى سوسير فى البحث اللغوى وأن نتعرف على نوع هذا التأثير واتجاهاته أصبح من الضرورى أن نصاحب كتابه المذكور فى رحلته التاريخية الطويلة ، وأن نواكب محاضراته هذه فى مسارها العلمى عبر قارات العالم المختلفة .

لقد بدأت هذه المحاضرات رحلتها فور ظهورها فى صورة كتاب لأول مرة عام ١٩١٦ م . ومنذ ذاك التاريخ حتى هذه اللحظة ، والكتاب يوالى أسفاره ويجد فى مسيرته عبر قارات الدنيا ، غربها وشرقها على سواء ، وإنك لتجده يحتل مكانا بارزا فى مكتبات دور العلم وقاعات الدرس ومنتديات الفكر اللغوى فى كل بلد أراد لنفسه أن يحظى بنصيب من هذه الثروة العلمية الجديدة وتلك الأصالة المنهجية اللتين حملهما الكتاب إلى الناس .

وقد اتخذ تأثير الكتاب فى أعمال الدارسين من بعد دى سوسير صورا عدة ونحا فى ذلك نواحى مختلفة . وإنه لمن الصعب فى هذا المقام أن نحصر هذه الصور أو أن نعدد تلك المناحى . وبحسنا أن نشير هنا إلى أمثلة محدودة فقط من صور هذا التأثير ، وبخاصة فيما يتعلق بمبدأيه الأساسيين اللذين سبقت الإشارة إليهما . ونعنى بهما التفريق بين المنهج الدياكرونى والمنهج السنكرونى ورأيه فى مفهوم « اللغة والكلام » والعلاقة بينهما .

وأول ما يلفت النظر فى هذا الشأن هو أن الكتاب استطاع أن يجذب إليه عددا من اللغويين وأن يوحد بين اتجاهاتهم وأفكارهم الرئيسية بحيث أصبحوا يكونوا مدرسة لغوية جديدة ، عرفت فيما بعد بمدرسة دى سوسير ، أو مدرسة جنيف . . . .

من أشهر أعضاء هذا المدرسة تلميذه الوفى تشارلز بيبه الذى « طبق مبادئ أستاذه فى التحليل السنكرونى على اللغة الفرنسية ، والذى استخدم هذه المبادئ ذاتها فى عقد مقارنة بين نظامى اللغتين «الفرنسية والألمانية». وكذلك سار هذا التلميذ فى ركاب أستاذه

---

(١) بالرغم من اعتراف دى سوسير « بأهلية » الكلام بالدراسة وبالرغم من اقتراحه اطلاق اسم « علم لغة الكلام » linguistics of speaking على العلم الذى يمكن أن يتولى شئونه – فانه لم يشأ أن يحدد طبيعة هذا العلم ، أو أن يبين جوانبه . وقد كان هذا مدعاة إلى اتهامه باهمال أحد طرفى ثنائيته (اللغة – الكلام) كما سبق أن أشرنا إلى ذلك (انظر ص٢٣٢) . وقد رأى بعض تابعيه (مثل بالمسار الانجليزى على ما يروى يسبرسن فى كتابه « الانسانية والأمة والفرد من وجهة نظر لغوية » ص ١٥) أن علم النفس هو المختص بالنظر فى « الكلام » ، على حين قرر كثيرون أن « علم الأصوات » (الفوناتيك phonetics فى مقابل الفنولوجيا phonology) هو الذى يعنى بدراسته والبحث فيه .

بقبوله مبدأ التفريق بين اللغة والكلام ، وإن كان يرى أن أستاذه قد بالغ فى النظر إلى اللغة على أنها شئ عقلى صرف ، وأنها نتيجة العقل الجماعى . أما هو(بييه)فيؤكد أهمية العنصر العاطفى فى اللغة .

أما أشهر تلامذته وأهمهم على الإطلاق فهو اللغوى الفرنسى الذائع الصيت أنطوان ميّيه الذى أخذ بوجهة نظر الأستاذ فيما يتعلق باللغة بوصفها « نظاما متكاملا متناسق التركيب مترابط الوحدات » والذى حذر - كما فعل أستاذه من قبل - من خطر دراسة عناصر اللغة منعزلة عن سياقها التركيبى . ولكن ميّيه بالرغم من هذا يميل إلى مخالفة الأستاذ فى بعض النقاط . من ذلك مثلا أنه «يأسف لما تعنيه النظرة التركيبية للغة - كما أرادها دى سوسير - من التجاهل الواضح للبشر الذين يستعملون اللغة ومن إغفالها لهذا العنصر المهم عند التحليل » .

وقد رأى هذا الرأى نفسه اللغوى الأسبانى « أمادوألونسو» أحد المتأثرين بآراء دى سوسير وأفكاره الجديدة . يلخص « ألونسو» موقفه من هذه القضية بقوله : « إن نظرية دى سوسير اللغوية قد ظفرت بوضوحها الرائع وبساطتها المميزة على حساب تجاهل أهم شئ فى الموضوع وهوالعنصر البشرى فى اللغة» .

ولم يقف تأثير الكتاب عند هذا الحد الذى ينتهى بتجميع عدد من التلامذة حول آراء الأستاذ ومبادئه ، وإنما استطاعت نظريات دى سوسير ومناهجه أن تنفذ بعمق واتساع واتساع عريض إلى أعمال اللغويين المحترفين على اختلاف بيئاتهم واتجاهاتهم الفكرية .

لقد أحدثت فكرة دى سوسير فى التفريق بين المنهجين الدياكرونى والسنكرونى فى دراسة اللغة ردود فعل واسعة متباينة ، فعارضها قوم فى بداية الأمر، مقررين سلامة القول بوجود هذين المنهجين ، ولكن التفريق التام بينهما — كما فعل الأستاذ الأول — أمر مبالغ فيه ولا تسوغه طبيعة اللغة ذاتها. وحجتهم فى ذلك — كما يرويها واحد منهم وهو يسبرسن الدنمركى — أن الدراسة السنكرونية التى لا تأخذ عامل الزمن فى الحسبان ألبتة لا يمكن تطبيقها تطبيقا سليما على اللغة ، إذ من الصعب « تثبيت » هذه اللغة ووصفها دون الإشارة إلى ما قد تخضع له من تغير وتطور . ودعموا حجتهم هذه بمجموعة من التساؤلات أوردها لنايسبرسن المذكور على هذا النحو : « متى يجوز لنا أن نقرر أن حالة ما من حالات اللغة قد انتهت ، وأن حالة أخرى قد حلت محلها » ؟ « كيف نتعامل مع تلك الآثار اللغوية القديمة التى تسللت وعادت إلى الحياة فى أساليب لغوية معينة » ؟ أو « كيف إذن نتناول هذه المستويات اللغوية المختلفةالظواهر ، كاللغة الدارجة ، وأساليب النثر العادية ، أو أساليبه الراقية » ؟ « أهذه المستويات لغات مختلفة أم هى لغة واحدة » ؟

على أن هذه المعارضة لم تمنع مبدأ التفريق بين المنهجين من الانتشار والذيوع ، بحيث أصبح لكل منهج أتباع وأشياع . وكان المنهج السنكرونى أسعد حظا من صاحبه وتلقاه الناس بالقبول ، واتجه إليه معظم الدارسين المحدثين فأفادوا منه ، وطبقه كل واحد منهم بصورة أو بأخرى ، والتزموا — بوجه خاص — بما تضمنه هذا المنهج من وجوب النظر إلى اللغة بوصفها « نظاما تركيباً » تظهر قيمة وحداته بطريق النظر فى علاقتها بعضها ببعض .

وهكذا امتد المنهج السنكرونى وأصبح يعنى شيئين متلازمين ، أولهما وصف الحقائق اللغوية ، كما هى فى التركيب فى فترة زمنية معينة ، ومن ثم أطلق عليه فيما بعد « المنهج الوصفى » وثانيهما : تناول اللغة على أنها شكل « تركيبى » لا مادة منطوقة ، مع الأخذ فى الحسبان أن اللغة « كل متكامل » تظهر قيم وحداته عن طريق وظائفها ، وذلك بالإشارة إلى جاراتها فى التركيب ذاته . وقد سمى هذا الوجه الثانى فيما بعد « بالنظرة التركيبية » أو « التركيبية الشكلية » فى البحث اللغوى .

ولسنا نبالغ إذا قررنا منذ البداية أن معظم الاتجاهات اللغوية الحديثة التى تؤكد أهمية منهج الوصف فى دراسة اللغة إنما ترجع مباشرة بطريق أو بآخر إلى دى‌سوسير نفسه، كما ترجع إليه كذلك كل الأفكار الجديدة فيما يتعلق بالنظرة التركيبية إلى اللغة .

تجد هذين الجانبين كليهما واضحين فى أعمال اللغوى الإنجليزى « فيرث » الذى لا يحيد عن مبدأ الوصف فى كل ما أخرجه هو وتلامذته إلى الناس ، كما تراه يلتزم بصورة أو بأخرى بالنظرة التركيبية إلى اللغة . اننا لا ننكر أن فيرث هو الآخر كان رائد مدرسة خاصة به ، تنسب إليه وحده، كما لا ننكر أنه كان كثير الاعتراض على الفكرة « التركيبية » للغة . بالمعنى الذى عناه رجال التحليل الفونيمى أو التحليل الصوتى الوظيفى ، من الأمريكان . ولكنه من المؤكد كان من رجال « النظـــرة التركيبية » بالمفهوم الذى أراده دى سوسير . تلحظ هذا فى بعض مصطلحاته ، كما تلمسه فى طرائق تحليله للغة .

ولقد أفاد الأمريكان المحدثون من المنهج السنكرونى عند دى سوسير . أفاد منه زعيمهم بلومفيلد المتوفى سنة ١٩٥٣ م ، فالتزم بمبدأ الوصف التزاما واضحا كما طبق النظرة التركيبية فى آثاره وأهمها كتابه الموسوم « باللغة » والمنعوت « بإنجيل علم اللغة » عند الأمريكان . غاية الأمر أن بلومفيلد خلط عمله هذا بمنهج مرحلى ، قوامه النظرة السلوكية إلى الأحداث اللغوية. إن هذه الأحداث عنده لا تعدو أن تكون ردود فعل لمثيرات أو دوافع ، تتبعها استجابات عملية . على أن هذا المنهج السلوكى ذاته لم يخل بالوفاء بمبادىء الوصف والتحليل التركيبى ، وهى مبادىء ترجع فى أساسها إلى العبقرى السويسرى دى سوسير .

ومنـــذ أن خط باومفيلد هذا الخط ، والدراسات اللغوية الأمريكية كلها على اختلاف اتجاهاتها لا تستطيع تجاوزه ؛ فالوصف أصبح القاعدة العامة عند تلامذته ولاحقيه ، كما سيطرت النظرة التركيبية على جل أعمالهم . يبدو ذلك واضحاً فى أعمال « زليج هارس Z. Harris » المؤسس الحقيقى للنظرة التركيبية فى أمريكا ، كما يشهد على ذلك كله كتابه المسمى «طرائق فى علم اللغة التركيبي Methods in Struotural Linguistics » :

وكل ما هنالك أن دراسات « هارس » فى هذا الكتاب كانت مركزة على الجانبين الصوتى والصرفى للغة دون كبير اهتمام بالجانب النحوى .

وفى هذه الأيام يخرج إلينا اللغوى الأمريكى « تشومسكى chomsky » بنظرية عدوها آخر صيحة فى البحث اللغوى ، وهى ماسموها « نظرية النحو التحويلى Transformational grammar » .
وإنك إن دققت النظر فى تفاصيلها استطعت أن ترجعها بصورة أو بأخرى إلى فكرة دى سوسير عن الدراسة التركيبية للغة .

والحق أن الأمريكان متأثرون أشد تأثر بالمنهج السنكرونى عند دى سوسير بل لعلهم بالغوا فى ذلك ؛ اذ هم الآن يعاملون اللغة ويتناولونها بالتحليل ، كما لو كانت شيئاً جامداً لا يتحرك ، شيئاً لا يصيبه التغير والتطور .

وجدير بنا هنا كذلك أن نشير إلى أن « النظرة السنكرونية » عند دى سوسير قد وجدت طريقها إلى أعمال الدراسين فى مدرسة « براج اللغوية » على الأقل فى فتراتها الأولى ، أو مرحلتها « الكلاسيكية» كما يطلقون عليها أحياناً . نعم ، لقد كان لهؤلاء القوم — كما يقولون — معرفة من نوع ما بالمنهج السنكرونى والطبيعيـــة السنكرونية للغة ، ولكن فكرة دى سوسير فى هذا الشأن كانت الدافع القوى لتعميق هذه الدراسة وجعل هذا اللون من التحليل خطا تفكيريا عاما فى رحاب هذه المدرسة .

وهناك فى جانب آخر من جوانب القارة الأوربية نجد ذلك العالم الدنمركى الشهير « هيلمسلف » الذى تأتى آثاره امتدادا حقيقياً لطريق دى سوسير فى التركيز على « الخواص التركيبية » للغة ، وفى تناولها على أساس أنها « بنـــاء » أو « شكل » form « لا مادة منطـــوقة substance . إنه يصرح أكثر من مرة أن مهمة علم اللغة إنما هى وصف وحدات اللغة فى التركيب وبيان العلاقات بين هذه الوحدات .

ويستمر هيلمسلف فى تعميق هذه النظرة وتأصيلها حتى يصل بها إلى دراسة رياضية ، مستخدما فى ذلك مناهج علم الجبر ووسائله فى التحليل اللغوى . وكان دائم الإلحاح على وجوب الاهتمام « بجوانيه » اللغة « لا بجوانبها « البرانية » ، ومن ثم كان من أهم

أهداف نظريته الوصول إلى ما سماه « علم اللغة الجوانى . » إنه — مثل دى سوسير — ينكر أن تكون اللغة مجرد أسماء لمسميات أو مجموعة من الرموز أو علامات مميزة للأشياء فى الواقع الخارجى ، إنها عنده مجموعة من العلاقات والارتباطات بين عناصر التركيب .

والخلاف الواضح بين الرجلين إنما يظهر فى إهمال هيلمسلف للجانب « العقلى أو النفسى للرمز » اللغوى وتركيزه على تحليـــل هذا « الرمز » بطريق « الوظائف الداخليـــة » التى يتكون منهـــا والوظائف الخارجيـــة التى تربطه بغيره من الوحدات اللغوية ، ويتم ذلك كله فى إطار الطريقـــة « الجوانية » للتحليل .

وبالرغم من أن هيلمسلف ينص على أنه وصل إلى نظريته هذه مستقلا عن غيره ، فانه لا ينكر فضل دى سوسير عليه ، وإفادته منه . لقد رأى فى أعمال دى سوسير تأكيدا لآرائه وتشجيعاً لها . وفى اعتقاده أن نظريته هى أول نظرية تمشى فى اطراد على الأسس التى وضعها دى سوسر فى نظريته التركيبية .

أما رحلة هذا الكتاب بالنسبة للمبدأ الثانى من مبادىء دى سوسير — ونعنى به — مبدأ التفريق بين « اللغة » و « الكلام » — فانها رحلة أطول مدى وأكثر تشعباً وأعمق تأثيراً من صاحبتها[1] .

---

(١) إن دى سوسير يعد فى نظرنا الرائد الأول فى التفريق بين اللغة langue والكلام parole ، بالوجه الذى طلع علينا به ، وبالصورة التى رسمها وحدد معالمها ، بحيث أصبح الجانبان كما لو كانا من طبيعتين مختلفتين ، وبحيث أدى هذا التفريق إلى إحداث تغيير ثورى فى النظر إلى اللغة وإلى خلق مناهج بحث جديدة ما كان لها أن تظهر لولا هذا الابتكار .

ولكن هذا لا ينفى بحال من الأحوال وجود نوع ما من التفريق أو التقابل بين اللغة والكلام فى التراث اللغوى الإنسانى قبل عصر دى سوسير ، ويظهر هذا التفريق النوعى فى صورتين رئيستين :

أولاهمـــا تتمثل فى وجود مصطلحات معينة فى بعض اللغات تومىء أو تشير إلى هذا التفريق النوعى . ففى اللغة العربية مثلا ، يوجد المصطلحان : اللغة والكلام ، وبجانبهما أيضاً يوجد مصطلح ثالث هو « اللسان » . وهذه الثلاثية موجودة فى اللغة الانجليزية كذلك . فهناك speech, language, tongue وكان المصريون القدماء يستعملون أحياناً المصطلح ro (بمعنى فم) فى مقابل « لغة » ، على حين كانت الكلمة mūdet تمثل « الكلام الفعلى » speaking .

أما اللاتينية ففيها المصطلحان : lingua و sermo ، وفى الألمانية : sprache و Reda ، وفى الهولندية : taal و rede وفى السويدية : språok, tal وفى الأسبانية : langue و habla . (جاردنر : نظرية الكلام واللغة ص ١٠٧ ، وماليرج : اتجاهات حديثة فى علم اللغة ص ٤٠) .

ففى هذه اللغات كلها يغلب أن يطلق المصطلح « لغة » أو مايقابله (وهو الأول من اليمين فى كل حالة) على العرف أو النظام اللغوى العام ، أو على الحقائق اللغوية بوصفها وحدات فى نظم مقررة يجرى عليها التقليد فى البيئة اللغوية المعينة ، على حين يستعمل « الكلام » وما يرادفه فى معنى النشاط العضوى أو النطق للانسان أو فى معنى الأحداث اللغوية الواقعة بالفعل من المتكلم .

عندما صرح دى سوسير بأن اللغة « حصيلة من الرموز المخزونة فى أذهان الجماعة وأنها بذلك عقلية اجتماعية ، ومن ثم كانت الموضوع الأول والأخير لعلم اللغة ، وأن الكلام المنطوق شىء مادى فردى وبذلك لا يدخل فى نطاق علم اللغة بمعناه الصحيح — عندما قرر دى سوسير ذلك تشعبت آراء الدارسين من بعده إلى اتجاهين رئيسيين فى هذا الشأن .

أما الاتجاه الأول فهو اتجاه معارض ، ويتزعمه اللغوى الدنمركى يسبرسن الذى ينص على أن هذا التفريق يخالف طبيعة الأمور وواقعها . فاللغة والكلام جانبان لشىء واحد ، وكلاهما عقلى ومادى وكلاهما اجتماعى وفردى ، وليس أحدهما أولى

على أن هذا التقابل فى استعمال هذه المصطلحات لايرقى بحال إلى مستوى التفريق الذى جاء به دى سوسير . فمن الواضح أن هذه المصطلحات (أو أغلبها) ذات مفهومات واسعة ، وقد يحدث التداخل أو الخلط بينها أحياناً .

« فاللغة » فى العربية مثلا مصطلح ذو مدلولات عدة ، فقد يطلق على الأسلوب ، وقد يعنى اللهجة ، وربما أطلق على « الكلام » نفسه ، هذا بالإضافة إلى معناه التقليدى المشهور .

« والكلام » هو الآخر قد يعنى أشياء كثيرة ، منها : اللغة ، ومجموعة الأصوات المنطوقة ، والمحادثة واللهجة ، وقد يكون مرادفا للجملة ، كما فى نحو قول ابن مالك : كلامنا لفظ مفيد ، كاستقم .

وقد يشير إلى هذا التداخل أو الخلط ما لمسناه من استعمال بعض هذه اللغات لهذه المصطلحات . فنى الألمانية والسويدية تستعمل الكلمتان sprache و sprack فى معنى « اللغة » على حين أن المصطلح الانجليزى speech يطلق على « الكلام » ، بالرغم من انتماء هذه الكلمات الثلاث إلى أصل لغوى واحد ، كما هو معروف . وفى السويدية تعنى الكلمة tal « الكلام » ولكن المصطلح الهولندى taal يعنى « اللغة » .

وعلى فرض أن هناك فروقا دقيقة بين « اللغة » و « الكلام » فى الاستعمال العام لهذه اللغات ، فان هذه الفروق ذات طبيعة تختلف عما عناه دى سوسير بمصطلحيه المشهورين ، على الوجه المبين سابقا . ولهذا لم يجد أكثر العلماء بدا من الالتزام فى غالب الأحايين بالمصطلحات الفرنسية التى استعملها هذا اللغوى الكبير فى هذا المجال ، حيث تأكدوا أن غيرها من المصطلحات فى اللغات الأخرى لا يستطيع الوفاء بما يرمى إليه دى سوسير ويعنيه .

أما الصورة الثانية التى تشعر بوجود فروق بين « اللغة » و « الكلام » فى التراث اللغوى ، فتظهر فيما يرويه التاريخ عن الهنود القدماء . يروى التاريخ أن هؤلاء الهنود قد وجدت لديهم فكرة التفريق بين هذين الجانبين ، ونصوا على أن « الكلام شىء ، ومعرفة العناصر التى يحتوى عليها هذا الكلام شىء آخر » ، أو بعبارة أخرى — كما يقرر أستاذنا فيرث — « لقد أكد الهندوس القدامى الفرق الكبير بين الكلام ومعرفة هذا الكلام .. أو تحليله عن طريق نسبتهم أول تحليل للكلام — وبالتالى نسبتهم أسس قواعد الكتابة — إلى الاله أندرا Indra » (انظر : فيرث Tongues of Men, P. 15.) .

وواضح من هذا أن هؤلاء الهندوس كانوا يدركون خواص كل من اللغة والكلام . ولكن هذا الإدراك — فى نظرنا — لم يتعد هذه المرحلة إلى ما بعدها ، بحيث تظهر آثاره فى الدرس العلمى ، وبحيث يضيف جديداً فى طرق البحث اللغوى . وحقيقة الأمر أن هذا التفريق الهندى بين الجانبين كان صادرا عن دافع دينى بحت ، ظهرت نتائجه فى نسبة تلك الأعمال العظيمة — وهى القدرة على التحليل اللغوى ووضع أسس الكتابة — إلى آلهتهم .

وبهذا كله استقر لنا الرأى الذى تبنيناه ، وهو أن ماقام به دى سوسير فى هذا الموضوع يعد أول محاولة علمية فى تاريخ البحث اللغوى .

من الآخر بالنظر والدراسة . وإذا كان لنا أن نفرق بينهما كان ذلك على أساس الواقع والاستعمال ، فنقول مثلا : لغة الجماعة ولغة الفرد . وفى رأى أصحاب هذا الاتجاه أن دى سوسير فى نقطتـــه هذه كان متأثراً بآراء « دركايم » فى التركيب الاجتماعى وفكرته حول ما أسماه « العقل الجماعى » أو « الشعور الجماعى » و « العقل الفردى » أو « الشعور الفردى » .

ويميل إلى هذا الرأى فى عمومه أستاذنا فيرث . والحق أن فيرث لم يتورط فى موضوع التفريق بين اللغة والكلام بالصورة التى خرج بها دى سوسير إلى الأوساط اللغوية . إن فيرث لا يرى التفريق بينهما ، إذ لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر ، لا فى النظر ولا فى التطبيق . ويبدو أن فيرث كان أكثر اهتماما بالأحداث المنطوقة - سواء أسميتها لغة أم كلاما ؛ لأن هـــذه الأحداث هى اللغة الحية التى تحمل فى طياتها الحقائق الاجتماعية والثقافية فى المجتمع المعين . وسر هذا الاهتمام من فيرث ليس غريباً عن منهجه العام فى دراسة اللغة . إنه منهج يقوم على نظرية « المقام » أو سياق الحال context of situation . ومعناه عنـــده أنه لا يمكننا دراسة اللغة منعزلة عن سياقها الاجتماعى الذى تستعمل فيه .

ويسير الاتجاه الثانى فى ركب الأستاذ مع خلافات يسيرة لا تخرج السائرين فى هذا الطريق عن الإطار العام الذى حدده دى سوسير . ومن البديهى أن يسلك تلامذته هذا النهج ، كما سبق أن بينا فيما يتعلق بتلميذه « بييه » الذى وافق أستاذه فى قضيته هذه ، ولكنه تخلف عنه حين قرر أن دى سوسير قد بالغ فى التفريق بين اللغة والكلام .

وهناك خارج « مدرسة جنيف » يقابلنا « بالمار » الإنجليزى الذى يحذو حذو دى سوسير فى مبدأ التفريق فى عمومه ، ويقدم لنا تفسيرات أخرى لبيان الفرق بين اللغة والكلام . إنه يشبه الفرق بينهما بالفرق الذى يوجد بين القواعد والنظم والتلغرافية وإرسال الرسالة التلغرافية نفسها عن طريق استخدام هذه القواعد . أو قل إنه كالفرق بين قواعد الموسيقى ونظمها وبين العزف نفسه .

وكذلك الحكم على جاردنر الذى ينضم فى نظرنا إلى أصحاب هذا الاتجاه . يظهر اتباعه لهذا المنهج فى تفسيره للحقيقة اللغوية وعناصرها وشرحه للعملية اللغوية وميكانيكيتها .

والحق أن جاردنر يفصح عن منهجه هذا بعنوان كتاب له ينتظم صراحة وبلا غموض فكرة التفريق السويسرية ، إذ أطلق عليه The Theory of Speech and Language « نظرية اللغة والكلام » .

وامتد هذا التأثير إلى واجد من أشهر المهتمين بالسيمانتيك أو علم المعنى فى انجلترا. ذلك هو أولمان الذى يسير على الدرب ذاته ، حين يقرر بوضوح أن « اللغة نظام من رموز صوتيه مخزونة فى أذهان أفراد الجماعة اللغوية ، ولكن الكلام نشاط مترجم لهذه الرموز الموجودة بالقوة إلى رموز فعلية حقيقية » .

ولم يكتف أولمان بهذا التفريق النظرى ، بل ظهر أثره فى أعماله فى أكثر من صورة . من ذلك مثلا أنه ينص على أن التحليل اللغوى ينبغى أن « يسير فى خطين متوازين » أحدهما يعنى بالجانب المادى وهو يتمثل فى الأصوات المنطوقة بالفعل والآخر يختص بالنظر فى الجانب العقلى وهو المعنى .

وما هذان الجانبان فى نظرنا إلا انعكاس صادق لفكرة « الثنائية » التى جاء بها دى سوسير . ويظهر هذا التأثير بصورة أعمق فى مواضيع أخرى مهمة أولاها أولمان عناية كبيرة .

من أبرز هذه المواضيع ما شغل أولمان به نفسه حين أراد تفريع علم اللغة إلى فروعه المختلفة . لقد قام هذا الباحث بتفريع هذا العلم تفريعا يطابق هذه الثنائية اللغوية مطابقة تامة . من ذلك مثلا أنه لم يدخل «الفونانيك» (علم الأصوات Phonetics) فى قائمة فروع علم اللغة على أساس أنه مختص بالنظر فى أصوات الكلام ، وهى أصوات مادية ، ليس من شأن اللغوى أن يعرض لها إلا بوصفها وسيلة لا غاية . أما العلم الذى نص عليه ، ورآه أهلا لنظر اللغويين فهو « الفنولوجيا » (أى علم وظائف الأصوات Phonology) أو علم الوحدات الصوتية للغة ، لا الأحداث الصوتية المنطوقة فى الكلام الفعلى .

أما التأثير الواضح لفكرة التفريق بين اللغة والكلام التى أتى بها دى سوسير فيظهر فى أعمال مدرسة مشهورة فى البحث اللغوى الحديث تعرف « بمدرسة براج اللغوية » . نلمس هذا التأثير عميقاً فى ذلك المبدأ المنسوب إلى رواد هذه المدرسة فى فتراتها الأولى . ونعنى به مبدأ التفريق التام بين علمين أو منهجين اثنين لدراسة الأصوات ، أحدهما هو «الفونانيك» ، والآخر هو « الفنولوجيا». ويخصصون الأول لدراسة الأحداث الصوتية المنطوقة فى الكلام الفعلى ، أما الثانى فيكرس جهوده فى النظر فى النظم الصوتية للغة المعينة ودراسة وظائف أصواتها فى التركيب .

ولقد كان هناك فى أواخر القرن التاسع إحساس عام بين اللغويين بوجوب التفريق

بين الأصوات المنطوقة ، وأنماط الأصوات أو الوحدات الصوتية . فكر فى هذا التفريق — بصورة ما — يسبرسن الدنمركى وسويت الإنجليزى ، ولكن وضع الحـــدود الفاصلة بين الجانبين إنما جاءت بطريقة حاسمة على يد الدارسين التشيكيين . وكان زعيمهم فى هذا الشأن هو العالم الشهير « تروبتسكوى » الذى وضع أسس « الفنولوجيا » ، ومناهج البحث فيه ، بوصفه فرعا من فروع التحليل اللغوى ، مناظرا ومقابلا للفونانيك .

ولقد اعتمد تروبتسكوى فى عمله هذا على فكرة دى سوسير فى التفريق بين اللغة والكلام ، حيث طابق هذه الثنائية بثنائية « الفونانيك والفنولوجيا » وحكم على الفونانيك بأنه من العلوم الطبيعية ، على حين عد الفنولوجيا منهجاً لغويا أو فرعا مهما من فروع علم اللغـــة . وبالرغم من اعتراف تروبتسكوى بأهمية الفونانيك بالنسبة للفنولوجيا وعلم اللغة بعامة ، فقد قوبل بما قوبل به دى سوسير من اعتراضات على مبـــدأ التفريق بين الجانبين ، فكلاهما مبالغ فى نظرته ، إذ اللغة والكلام — فى رأى المعارضين — شيئان لا ينفصلان ، وكذلك لا تتم الدراسة الصوتية دراسة دقيقـــة دون الاعتماد على الفوناتيك والفنولوجيا كليهما .

ومهما يكن الأمر فمن المؤكد لدى الدارسين أن مبدأ التفريق الذى أتى به دى سوسير هو الأساس الحقيقى لظهور مدرسة صوتية مميزة ، ما كان لها أن تظهر بمنهجها هذا لولا أفكار هذا السويسرى العظيم . هذه المدرسة هى « مدرسة براغ للصوتيات » .

وهناك فى الجانب الآخر من الصورة مجموعة من اللغويين فى بلاد العالم المختلفة لم تشأ أن تقف عند مسألة التفريق بين اللغة والكلام وقفة خاصة ، وأن تبدى رأيا حاسما واضحاً فيها ، ولكنا مع ذلك نلمح فى آثار بعضهم الميل أحياناً إلى التسليم بمبدأ التفريق فى بعض صوره .

من ذلك مثلا ما يعمد إليه البعض فى أمريكا بالذات من محاولة الإشارة إلى الطبيعة المادية للكلام فى مقابل الطبيعة التركيبية أو « النظامية » للغة . ومن ثم نرى هؤلاء

يضعون حدوداً من نوع ما بين الفوناتيك والفنولوجيا . حتى لتجد الواحد منهم يعد « الفوناتيك » فرعا ثانوياً من فروع علم اللغة ، أو تخرجه نهائياً من هذا الحقل ؛ على حين يضع الفنولوجيا فى قائمة الفروع الأساسية لهذا العلم ، بوصفه منهجا يعنى باللغة أو بنظامها الصوتى ، لا بالأحداث المادية للكلام المنطوق . يظهر هذا السلوك فى أعمـــال هُكِت الأمريكى ، ويشبهه إلى حد ما فى ذلك روبنس الإنجليزى .

كمال محمد بشر